الرسالة الثانية

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان يقول إذا قام إلى الصلاة من جوف الليل:

« اللهم لك الحمد، أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت قيَّام السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت رب السماوات والأرض ومن فيهن [ولك الحمد، أنت ملك السماوات والأرض ومن فيهن](١)

أنت الحق، ووعدك الحق، وقولك الحق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والساعة حق، والنبيون حق، ومحمد ﷺ حق، اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وإليك آنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، أنت ربنا وإليك المصير، فاغفرْ لي ما قدَّمت وما أخَّرت وما أسررت وما أعلنت، وما أنت أعلم به مني

---

(١) هذه الزيادة في رواية النسائي بإسناد صحيح.

أنت المقدِّم وأنت المؤخر، أنت إلهي لا إله إلاَّ أنت ولا حول ولا قوَّة إلاَّ بالله» (١).

هذا الدعاء العظيم الذي هو معجزة من معجزات رسول الله ﷺ إذْ كل جملة منه كنز من الكنوز لمن تأمله وتدبَّره، يغيّر من الإنسان إلى الأكمل وينقله من أحواله الأرضية إلى آفاق الهُدى والنور، وما أحوجنا أن نتغير من الداخل – من داخلنا – في هذه الظروف الصعبة التي تمر بها أمتنا في كل مكان، وقد تكالب عليها الأحزاب واجتمعوا رغم تفرقهم على حربها وهموا بأخذ دعوة الحق ليجتثوها، وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق، والله آخذهم ومنزل بهم عقابه قطعًا ويقينًا ولكن متى ؟ حين نتغير نحن من الداخل الذي بالقطع سيؤدي إلى تغيير في الخارج في العمل والسلوك والأخلاق، وطريقة التعامل مع الواقع من حولنا وفق شرع الله سبحانه.

أقول : هذا الدعاء الكنز – بل الكنوز – الذي يُغيّر

---

(١) رواه البخاري ومسلم والنسائي والترمذي وابن ماجه وغيرهم.

الأعماق لمن جاهد ليدخله تلك الأعماق ولم يكتف بمجرد ترداد اللسان الذي قليلاً ما يُجدي أو هو يغير الخارج ولا يغير الداخل، نحتاج إلى الوقوف مع جُمَلِه وعباراته التي إذا خرجت من القلب فعلاً خرقت الحجب، ومزقت الموانع حتَّى تصل إلى سدرة المنتهى .

«**اللهم لك الحمد**» الاستفتاح بالتوسل إلى الله بالألوهية «**اللهم**» وتأمل أثر الميم المشددة التي أُضيفت إلى اسم «**الله**» فمع ضمة الشفتين وتقاربهما والتشديد يشعر العبد بحاجته الماسة إلى القرب من الله الحق ، وأن يأخذه الله إليه وهو يتوسل إليه بذلك شوقًا وحبًا، وشكوى له من ألم البعد وألم الأسر – الأسر في هذه الشهوات الأرضية والبعد عن الرفيق الأعلى – ومعاناة أمراض النفس ومعالجتها ومكابدة المداخل الشيطانية التي لا تفتر فهو كالغريق الذي يوشك أن يغرق إلا أن يأخذه مولاه وإلهه إليه .

«**لك الحمد**» شهود للجمال والجلال والكمال في الذات والأسماء والصفات والأفعال الذي اختص الله به فهو

الجميل حقًا ، الرحمن الرحيم الكريم المنان العظيم ذو الجلال والإكرام، والجلال هو صفات الكمال كلها من كمال المجد والعلم والقدرة والرحمة والحكمة والعدل والعزة والكبرياء، ولأن الله وحده هو المنفرد بالكمال الحق قدَّم الجار والمجرور «**لك**» على المبتدأ «**الحمد**» ، فأصل الجملة «**الحمد لك**» لكن قدَّم الخبر للاختصاص فهو المستحق للحمد سبحانه وحده على الحقيقة، ولا يُحمد أحد من خلقه – إذا حمدهم هو عز وجل – كحمده سبحانه، ثم في الحمد أيضًا شهود النعمة والإحسان والفضل العظيم: النعمة الظاهرة والباطنة والنعم الدينية والدنيوية، التي أعظمها نعمة توحيده والإيمان به والإسلام له ، وإجابة رسوله محمد ﷺ ﴿ **مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٣٨)** ﴾ [يوسف: ٣٨]، ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا** ﴾ [المائدة: ٣]، ﴿ **لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ**

يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين (١٦٤)﴾ [آل عمران: ١٦٤].

لا يدرك كل واحدة من هذه المنن إلاَّ من ذاق طعمها إذا سعى إلى طهارة قلبه؛ فإن القرآن كما أنه في اللوح المحفوظ لا يمسه إلاَّ المطهرون، فكذلك هو في الدنيا لا يمس معانيه العظيمة ويتذوق حلاوة الإيمان بما فيه إلاَّ القلوب التي طهرها الله من أرجاس الشهوات والضلالات، ثم يتذكر العبد نعمة الله عليه بالحياة والصحة والسمع والبصر والعقل واليد والرجل وسلامة الأعضاء التي كل واحدة منها في كل لحظة نعمة من أجل النعم، نحن لا نملك منها شيئًا ولا نستطيع حفظها، ولو كان الناس يحفظونها لما مرض مريض ولا مات ميت ولا تألم متألم، فالعبد ربما وهو في سيره يتوقَّف جريان الدم في شريان صغير بجلطة صغيرة، يضيع البصر أو تُشل اليد والرجل أو يخرس اللسان.

ما أشد ضعف الإنسان، ويزداد شعوره بالضعف الشديد، ويزداد ظهور هذا الضعف في آخر أيامه، وتفكرْ:

هل استطاع أحد أن يمنع هذا الضعف عن كل من مات من قبلنا؟ فهل ندرك إذن قدر نعمة الله علينا بالحياة والسمع والبصر والحركة، فنقول من قلوبنا «**اللهم لك الحمد**» ثم نتذكر نعمة الله علينا بالأهل والأولاد الذين نحبهم، ألم نكن كلنا خالين من ذلك ثم وهبنا الله ذلك؟ أين كانت علاقتنا بأهلينا قبل معرفتهم وقبل لقائهم؟ أو قبل ذلك، قبل أن يسمع بعضنا ببعض، أين كانت هذه المشاعر الموجودة الآن؟ كانت عدمًا ثم وُهبت لنا لنجد بها بَرْد الود في وسط حر هذه الحياة المليئة بالكراهية والحقد والحسد، ولنجد رَوْح الرحمة في وسط أجواء القسوة والغفلة.

أين كان الأولاد قبل ذلك، ونحن نتضرع إلى الله أن يهبنا من لدنه ذرية طيبة ولا ندري من أي الأقسام نكون ﴿**يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا**﴾ [الشورى: ٤٩، ٥٠] حين كنا ندعو وشبح أن نكون ممن قدَّر الله لهم عدم الولد يؤلمنا وتضيق به صدورنا ؟ ثم منَّ الله علينا

بالأولاد جعلهم الله دعوات مستجابة وذرية طيبة إنه سميع الدعاء، وأعاذهم من شرور أنفسهم وشر الشيطان وشركه وهداهم وجعلهم أتقياء وأعفَّهم عن الحرام وأغناهم، فوهب الله لنا بعد هبة الأولاد هبة هذه المشاعر الحانية، فالحنان هبة ونعمة من الله من آثار رحمته ﴿**وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (١٢) وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا**﴾ [مريم: ١٢، ١٣] أي وهبنا له في قلبه حنانًا عَطيَّة من عندنا فكان يحيى عليه السلام رحيمًا شفيقًا بالخلق ناصحًا لهم، اللهم إني أُشهدك أني أحبه حبًا عظيمًا.

وهناك من الخلق من نزع الله من قلبه الرحمة قال النَّبي ﷺ للأقرع بن حابس، وقد قال له: أتُقبّلون صبيانكم؟ إن لي عشرة من الولد ما قبَّلت أحدًا منهم. فقال له: «**أو أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة**»(١)، كم نرى أُناسًا قساةً قلوبهم، غليظة طباعهم، عديمة أحاسيسهم،

---

(١) **حديث صحيح**، رواه مسلم، ونصه: «**وأملك إن كان الله نزع منكم الرحمة**» رقم (٩٣١٧).

فيُعذَّبون، ويتعذب بهم من حولهم، فهل تخرج من قلوبنا: «**اللهم لك الحمد**».

ثم لنتأمل نعمة الله علينا بالكفاية في المطعم والمشرب والملبس والعمل، فلم يحوجنا لسؤال خلقه والذل لهم، اللهم كما صنت وجوهنا عن السجود لغيرك فصنها عن المسألة لغيرك، ثم لنتذكر نعمة الله علينا بحب الناس ومودتهم وتقديرهم، كم تبذل أموال وأوقات ودعايات لشيء من ذلك فلا يُنال؛ إن أهل الدنيا يحلمون بشيء يسير من هذه النعم، ومن أجل ذلك يُسخّرون الجنود والأعوان والألسنة والأقلام للمدح والثناء، فلا يعود عليهم ذلك في قلوب الناس إلاَّ بغضب ومقت، إذ مقتهم الله على كفرهم ومعاصيهم، فوضع لهم البغضاء في الأرض، فهل نقول من قلوبنا «**اللهم لك الحمد**»وإذا تأملنا ما خفيَ عن حِسِّنا من اللطف والبر والإحسان منه عز وجل من حبه ورحمته وفضله، ومن حب ملائكته واستغفارهم ودعائهم وصلاتهم، ومن استغفار النملة في جحرها والحيتان في

البحر لمعلم الناس الخير - اللهم اجعلنا منهم - لَذُبْنا شوقًا وحبًا وحمدًا له سبحانه وبحمده لا نحصي ثناء عليه هو كما أثنى على نفسه .

«**أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن**» هو سبحانه هادي أهل السماوات والأرض وجاعل النور فيهما وفي قلوب من شاء من أهلهما، وجعله النور الحسي والمعنوي في السماوات والأرض هو أثر من آثار وصفه عز وجل بأنه النور الهادي، كما قال تعالى: ﴿**وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا**﴾ [الزمر: ٦٩]، وقال النبي ﷺ: «**حجابه النور لو كشفه لأحرقت سُبُحَات**- أي أنوار - **وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه**»(١) أي جميع الخلق؛ لأن بصره يدرك جميع خلقه .

فإذا كان النور المخلوق حجابه الذي جعله سبحانه رحمة بعباده في هذه الدار إذ لو كشفه لاحترقوا جميعًا ولذا قال النَّبي ﷺ لما سُئل: هل رأيت ربك؟ (أي ليلة المعراج) قال: «**رأيت نوراً**»، وفي مسلم «**نورٌ أنَّى أراه؟**»

(١) حديث صحيح .

أي نور حجبني، فكيف أراه، ولقد زال الجبل واندكَّ لمَّا تجلَّى له الرب سبحانه أدنى تجلي، وخرَّ موسى صعقًا، كما قال تعالى: ﴿ **وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٣)** ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

ومن اللطائف الرائعة الجميلة في هذه الآية الكريمة أن موسى عليه السلام بعد الأربعين ليلة من العبادة التي واعده ربه يصوم نهارها ويقوم ليلها، فحصل له من الشوق والحب ما لا تُدركه قلوبنا، ثم جاء عليه السلام لميقات ربه وكلَّمه ربه فحصل له المزيد من هذا الشوق والحب الذي بالأولى نعجز عن إدراكه فضلاً عن وصفه، ومن شدَّة هذا الحب والشوق بعد سماع كلام الرب، قال لربه: ﴿ **رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ** ﴾ فكان الجواب ﴿ **لَن تَرَانِي** ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، ولما كان الجواب قد يُظن منه وحشة أزالها الله ببيان سبب عدم الرؤية

في هذه الدار فليس المانع منها بعداً من الله أو سخطًا أو عدم حب من الله سبحانه، بل هو عز وجل يحبه ويدنيه، وهو الذي اختاره وصنعه علي عينه واصطنعه لنفسه، ولكن السبب هو عدم قدرة موسى على تحمل نور التجلي الإلهي، فقال : ﴿ **وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٣)** ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، ثم كان التأنيس بعد الصعق بذكر آلاء الاصطفاء والتكليم ﴿ **يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ (١٤٤)** ﴾ [الأعراف: ١٤٤].

والمقصود أن الأنوار التي جعلها وخلقها الله في السماوات والأرض وفي قلوب من شاء من أهلهما هي أثر من آثار صفته ، وليست الأنوار المخلوقة صفته عز وجل بل كما قال ابن مسعود رضي الله عنه : « نور السماوات والأرض من نور وجهه » أي من آثار صفته، وليست الأنوار المخلوقة صفته

عز وجل، كما أن الرحمة التي أنزلها الله في قلوب الخلائق بها تتراحم وبها ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه هذه الرحمة المخلوقة ومعها التسعة والتسعين المدَّخرة ليوم القيامة هي أثر من آثار اسمه الرحمن الرحيم، وأثر من آثار الرحمة التي هي صفته عز وجل، لا يُدرك العباد كنهها ولا يعقلون كيفيتها، فالحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون .

ثم لنتأمل نعمته وحمده على خلق الظلمات وعلى خلق النور، وله الحمد على هداية من هدى، وجعل في قلبه النور، وله الحمد على إضلال من أضلَّ وجعل في قلبه الظلمات ، ظلمات الضلالات الكاذبة والشهوات الحقيرة الفانية ولكل ضلالة وغواية ظلمة في القلب أكثر الخلق لا يشعرون بها إلاَّ بوجود همٍ وكرب وشقاء لا يدرون من أين يأتيهم.

اللهم اجعل في قلوبنا نوراً وفي أبصارنا نوراً، وفي

أسماعنا نوراً، وعن أيماننا نوراً وعن شمائلنا نوراً، ومن أمامنا نوراً ومن خلفنا نوراً، وفوقنا نوراً وتحتنا نوراً، اللهم اجعل لنا نوراً ﴿ **وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ** (٤٠) ﴾ [النور: ٤٠].

النور الذي يجعله الله في قلوب أوليائه به يبصرون حقائق الوجود وملكوت السماوات والأرض يُدركون به حقيقة الأزل والأبد والغفوة التي بينهما - أعني هذه الحياة- فالله هو الأول الذي ليس قبله شيء وهو الآخر الذي ليس بعده شيء، كم هو قدر ملايين الملايين بالنسبة إلى اللانهاية؟ أليست صفراً؟ فكذلك هذه الغفوة - الحياة الدنيا - التي نصيبنا منها كم؟ ونحن قد سبقنا آلاف أو ملايين الأجيال، لا ندري لكن بالقطع نصيب صغير صغير صغير جداً أحقر من أن يُسمى شيئًا، فنحن والله لا نساوي شيئًا زمانًا ومكانًا، فكم تبلغ أرضنا في الكون الفسيح، وكم هو نصيبنا من هذه الأرض، ونحن - لولا الله الذي أهّل قلوبنا لحبه ومعرفته - لعَدَم وأحقر من العدم، فاللهم

لك الحمد أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن.

بالنور الذي يجعله سبحانه في قلوب المؤمنين يُبصرون حقائق الآخرة وبقاءها وخلودها، وكأنهم ينظرون به الآن إلى أهل الجنة يتنعَّمون فيها وإلى أهل النار يتضاغون فيها، وإلى الناس وقد قاموا حفاة عراة غرلاً كلهم بلا استثناء، ووقفوا في أرض المحشر التي قد زلزلت زلزالها وأخرجت أثقالها، وقال الإنسان مالها، وإلى الحساب والميزان قد نصب، والصراط على ظهر جهنَّم قد ضُرب أدق من الشعرة وأحدّ من السيف وتحته النار تكاد تميز من الغيظ على الكفار والمنافقين والعصاة، قعرها سبعون خريفًا، ولذا كان في هذا الدعاء بعد ذكر الاستفتاح بالثناء على الله بأنه نور السموات والأرض ومن فيهن الإقرار بالجنة والنار والساعة «**والجنة حق والنار حق والساعة حق**».

وبالنور الذي يجعله الله سبحانه وتعالى في قلوب المخلصين من عباده يُبصرون حقيقة الصراع الذي يجري على وجه الأرض وهم حلقة من حلقاته ودائرة من دوائره، وهم

يحمدون الله أن جعل دورهم نصرة لدينه ودعوة في سبيله، وقد جعل غيرهم أعداءً لشرعه وجنوداً لعدوه، فإذا رأوا حقيقة الصراع لم يغرَّهم تقلب الذين كفروا في البلاد ولم يُفزعهم قوَّة الباطل الزائفة وتسلطه المؤقت ومرحه في الظلام الذي ليس من صنعه، بل هو خَلْق من خلق الله يوشك الله أن يزيله ويحل محله النور، فتُشرق الأرض بشمس الإسلام، ويعمها نور الإيمان، فاللهم انصر دينك وكتابك وسنة نبيك ﷺ وعبادك المؤمنين .

«**ولك الحمد أنت قيَّام السماوات والأرض ومن فيهن**» القيَّام والقيوم والقيّم – كما في رواية لمسلم في هذا الحديث – القائم بأمر السماوات والأرض ومن فيهن خلقًا وإيجاداً ورزقًا وحفظًا وإبقاءً لهم ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِن بَعْدِهِ**﴾ [فاطر: ٤١] ثم رقابة ومحاسبة وجزاءًا وثوابًا وعقابًا ﴿**أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ**﴾ [الرعد: ٣٣] واسم القيوم والقيّام هو الاسم الجامع لصفات الأفعال

أفعال الرب سبحانه فبكونه القيوم أقام السماوات والأرض ومن فيهن، أمات وأحيا خفض ورفع، أعطى ومنع، أعزَّ وأذلَّ، أسعد وأشقى، وأضحك وأبكى، وخلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى، ابتدأ الخلق ثم يعيده، مَلَكَ الملك من شاء بحكمته ونزعه ممن شاء بعدله، يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ويُخرج الحي من الميت، ويُخرج الميت من الحي ويرزق من يشاء بغير حساب، فرَّج الكروب وغفر الذنوب وستر العيوب، وفكَّ الأسرى ونصر المظلومين وعذَّب الطاغين، نصر من شاء وخذل من شاء، هدى من شاء وأضلَّ من شاء، يُنزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته، فهذا الاسم جامع لكل أفعاله سبحانه وتأمُّله يستغرق العبد بالكلية.

وكما أن اسم الحي هو الجامع لصفات الذات، واسم الله الدال على استحقاقه كل معاني الألوهية وإليه تصرف كل العبادات كانت هذه الأسماء الثلاث ﴿**اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ**﴾ [البقرة: ٢٥٥]، من دعا الله بها أجابه ومن

سأله بها أعطاه، فهي الدالة على توحيد الألوهية، والأسماء والصفات وتوحيد الربوبية على الترتيب، والله أعلم.

«**ولك الحمد أنت رب السماوات والأرض ومن فيهن**» وهذه في رواية لمسلم، وهذا عطف عام على خاص، والقيومية أحد معاني الربوبية، فالرب هو الخالق الرازق المدبر القائم بأمر خلقه، وهو المالك لكل من سواه وما سواه، وهو السيد الآمر الناهي المطاع، وهو المدعو والمعبود، فأثنى على الله بربوبيته بعد الثناء عليه بقيوميته؛ ليشهد العبد باقي معاني الربوبية من الملك التام فيشهد به فقره، وحاجته وعجزه وضعفه وفقر جميع الخلائق ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (١٥) إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٦) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (١٧)**﴾ [فاطر: ١٥- ١٧].

ويشهد كذلك مُلك ربه وأمره وأنه هو وحده الذي له الأمر والتشريع لخلقه لا شرع إلاَّ ما شرعه وكل ما خالفه فهو باطل وزور، فالحلال ما أحلّه والحرام ما حرّم، والدين ما

شرعه ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١] وهذا من رحمته بخلقه، فإنهم حين ظنوا ظلمًا منهم وعدوانًا وجهلاً وطغيانًا أن من حقهم أن يشرعوا ما شاءوا دون رجوع لأمر الله وشرعه سواء بملوكهم ورؤسائهم أو أحبارهم ورهبانهم أو أغلبيتهم واستفتاءاتهم، شقوا أعظم الشقاء، أشْقوا أنفسهم وشعوبهم وأذاقوهم ألوان العذاب، والعجب أنهم حريصون أشد الحرص على هذا العذاب وما ذاك إلاَّ لكون إبليس هو المخطط لهذه الجريمة وهو رأس هذا الطغيان ولهذا المعنى والله أعلم كان في ضمن الدعاء بعد ذلك «**وبك خاصمت وإليك حاكمت**» وستأتي إن شاء الله .

«**ولك الحمد أنت مَلك السماوات والأرض ومن فيهن**» وهذا المعنى كما تقدَّم أحد معاني الربوبية، وتأكيد ذكره مستقلاً بعد أن دخل في عموم «**رب السموات والأرض**» لكي يستحضر العبد عظمة مُلك من يعمل له، فلا يرضى لنفسه أن يعمل لملوك الأرض ويشهد أنه جندي

للملك الحق وهو الذي اختاره لذلك إذ جعله عبداً له عاملاً بدينه عاملاً من أجله، ساعياً لنصرة شرعه، مجاهداً لإعلاء كلمته في الأرض – وهي العليا – فلا يرتضي لنفسه بعد ذلك أن يكون جندياً للباطل تابعاً له وهو يشهد كل يوم زوال ملوك الأرض، أين مُلك شاه إيران وصدام وأولادهما، ارجع بنظرك قليلاً أين مُلك من سبق من الملوك والرؤساء، أين مُلك الفراعنة وعاد وثمود وتُبَّع؟ أين أباطرة الرومان واليونان وغيرهم؟

لا تغتروا بمُلك زائل، يُعذَّب أصحابه به وجنودهم معهم وهم في عز ملكهم، فما الظن بعذابهم في ظلمة القبور، فما الظن بعذابهم في حر يوم النشور ﴿ **يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾** ﴾ [هود: ٩٨، ٩٩] ، وقال تعالى: ﴿ **وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِّنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ**

قد حكم بين العباد (٤٨) ﴾ [غافر: ٤٧، ٤٨]، اللهم إنا نعوذ بك أن نركن إلى الذين ظلموا أو نكون من جندهم .

وإذا استحضر العبد أن الله ملك السماوات والأرض ومن فيهن لم يجزع من هزيمة أو ضعف أو كسرة للمسلمين في زمن معين أو مكان معين - وإن كان يؤلمه ذلك - لكن لا ييأس ولا يبتأس بما كان الظالمون يفعلون، فإن الملك هو الذي أمر بذلك اختباراً لجنده وتمحيصاً لهم، ثم في لمح البصر تغير الموازين وتعتدل الأوضاع ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (١٦٦) ﴾ [آل عمران: ١٦٦]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (٥٠) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُدَّكِرٍ (٥١) ﴾ [القمر: ٥٠، ٥١]، وقال: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (٥١) يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٥٢) ﴾ [غافر: ٥١، ٥٢] .

«أنت الحق» أي المتحقق وجوده ووحدانيته وأوليته قبل

كل شيء وآخريته وبقاؤه بعد كل شيء، وكل من سواه عز وجل فكان عدمًا ويصير أيضًا إلى الهلاك ﴿ **كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ** ﴾ [القصص: ٨٨]، وبقاؤه إنما هو بإبقاء الله له في هذه الحياة ويوم القيامة ﴿ **وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ** ﴾ [إبراهيم: ٢٣] فبإذنه سبحانه خُلِّد من كتب الله له الخلود أو كتب عليه الخلود كالنار وأهلها عياذًا بالله منها، وقد فطر الله العباد على الإقرار بوجوده ووحدانيته، كما نصب لهم الأدلة والآيات في الآفاق وفي أنفسهم على ذلك ﴿ **قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى** ﴾ [إبراهيم: ١٠] فليس في وجوده شك وليس في وحدانيته شك سبحانه وبحمده.

قوله ﷺ: «**ووعدك الحق**» يحتاج العبد إلى تأكيد هذه الحقيقة على قلبه يوميًا، بل لحظيًا حتَّى لا تأخذه أمواج الفتن التي تُغرق أكثر الخلق وتُلقيهم في بحار الغفلة

والنسيان، فوعد الله بإقامة الساعة وجمع الأولين والآخرين في يوم التلاق حق ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٥)** ﴾ [فاطر: ٥] والغَرور هو الشيطان، فالدنيا تُلهي الإنسان وتُنسيه هذه الأوقات الخطيرة التي حتماً هو مُقبل عليها والشيطان قاعد له على الصراط المستقيم يأتيه من بين يديه يُرغّب له الدنيا ويُعلق قلبه بها أو نقول يصطاد قلبه بشباكها حتَّى لا يعقل، ومن خلفه يبعده عن الآخرة ويقول له أيَّان يوم القيامة.

ووعد الله في الدنيا بظهور الإسلام ومحق الكفر ونصر المسلمين وهزيمة الكافرين حق مهما كانت الأسباب المادية والظواهر الأرضية تدل على غير ذلك ﴿ **هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا (٢٨)** ﴾ [الفتح: ٢٨]، ﴿ **يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ**

﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣) ﴾ [التوبة : ٣٢، ٣٣]، ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥) إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ (١٠٦) ﴾ [الأنبياء: ١٠٥، ١٠٦] فهو وعد في الكتب المنزلة من عند الله ، فالزبور اسم جنس للكتب التي تُزبر أي تُكتب ﴿ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ ﴾ أي اللوح المحفوظ، وهو وعد في اللوح المحفوظ، وعد قدري وأمر شرعي بالعمل على ظهور الدين وإعلاء كلمة الله .

وما أحوجنا إلى تأكيد هذا المعنى في نفوسنا ونحن في هذه المرحلة الصعبة من تاريخ الأمة وإن كان المتأمل للأحداث الذي يتجاوز ساعته ويومه، بل عمره إلى النظر إلى تغيرات الأمم والشعوب التي لا تقاس بالشهور ولا بالسنين، بل بعشراتها وربما بمئاتها يلحظ بقوة تصاعد أهل الإسلام ونبع الخير في الأمة في كل مكان وفي وقت وجيز وبدون موافقة من بعضهم لبعض على ذلك، فلو تأملنا حال أمة الإسلام وخلافتها تسقط وأرضها تُحتل من حوالي

تسعين عامًا أو تزيد، لقال الناظر أمة تحتضر وتنتهي كما انتهت أمم وحضارات من قبل كالفراعنة والرومان واليونان وغيرهم، ولكن نتأملها اليوم والعالم كله حرب عليها، واجتمع عليها من بأقطار الأرض، ورغم التفاوت الهائل في القوة المادية، ورغم اجتماع المكر من أهله الذي تزول منه الجبال وهم يحاربونها على أنها التهديد الأول لهم إذا بها تزداد تمسكًا بدينها وبذلاً من أجله.

وإنما أعني بالأمة أهل الحياة فيها أهل الإيمان والإسلام والإحسان فهم الأمة وهم الطائفة الظاهرة المنصورة إلى قيام الساعة، وهذا كله مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ **أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ** (٤٤) ﴾ [الأنبياء: ٤٤]، فالأرض تنتقص من حول الكفار بظهور الإسلام في أرجائها، فكيف يكونون غالبين، هذا لا يكون، بل هم المغلوبون المدحورون بإذن الله ﴿ **وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا** (٣١) ﴾ [الفرقان: ٣١] يهدي عباده المؤمنين وينصرهم على من ناوأهم، ولكن يبتليهم ليرى صدقهم

وصبرهم وحبهم لربهم ولنبيهم ولدينهم فيحب ذلك منهم ويحبهم عليه ثم يجعل لهم العاقبة ﴿ **ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد (١٩٤)** ﴾ [آل عمران: ١٩٤]، ﴿ **ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب (٨) ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد (٩)** ﴾ [آل عمران: ٨، ٩].

وشعور الإنسان بأن وعد الله حق وأنه قد اقترب الوعد الحق يجعله يرى الكفرة والظلمة يلعبون فيما يحاولون إطفاء هذا الدين ومحاربة أهله فهم والله يلعبون ﴿ **فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون (٨٣)** ﴾ [الزخرف: ٨٣]، وماذا يصنع اللعب والخوض بالباطل أمام الحق اليقين؟ وهذا يدفع المؤمن إلى أن لا يرضى بالباطل ولا يتابعه ولا يقبله ولا يتنازل عن شيء من الحق تحت ضغط قوة الباطل الزائفة الزائلة، فيا رب احكم بالحق وربنا الرحمن المستعان على ما يصفون.

«**وقولك الحق**» قوله سبحانه الكوني الذي يخلق به وتكون به الأشياء ﴿**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ** (٨٢)﴾ [يس: ٨٢] وقوله الشرعي المنزَّل على رسوله ﷺ بالأوامر والنواهي والتشريعات، فكلاهما حق ﴿**وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** (١١٥)﴾ [الأنعام: ١١٥] فكلماته الكونية كلها صدق وحق وأمره واحدة أي مرة واحدة لا تحتاج إلى تكرار ليتحقق ما أراد ويكون ما يشاء ﴿**وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ**﴾ [القمر: ٥٠].

فالأوامر من عنده نازلة نافذة كما أمر ﴿**يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ** (٥)﴾ [السجدة: ٥] ﴿**وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**﴾ [هود: ١٢٣].

فاللهم فوّضنا أمورنا كلها إليك وأنت بصير بالعباد فاقدر لنا الخير حيث كان ثم رضنا به، كما أن كلماته

الكونية كلها عدل لا ظلم فيها، حتّى ما يخلقه بها من الكفر والظلم، فإن خلقه لها وإيجاده وفعله كله عدل وحكمة يستحق الحمد عليها فله الحمد على كل حال فخلقه للشر ليس بشر، كما قال رسول الله ﷺ.

«**والشر ليس إليك**» وخلقه للظلم والظلمة ليس بظلم منه عز وجل، بل حكمة وعدل وإنما خلق الشر والظلم لحكمة بالغة منها أن تكتمل عبوديّة أهل الإيمان والحق والعدل بالصبر والجهاد والتضحية والتوكل والإحسان وسط الفساد وبالطاعة وسط المعاصي وبالإيمان وسط الكفر، فالله خلق الظلمة والكفرة لغيرهم، خلقهم ليعبد المؤمنون ربهم من خلال معاملتهم، فالحمد لله الذي خلقنا لعبادته ونسأله أن يتم نعمته علينا حتّى نلقاه وهو راضٍ عنا، ونعوذ بالله أن يجعلنا ممن هانوا عليه فأذلهم بمعصيته وجعلهم من سَقَطِ المتاع بل من جِثي جهنّم جزاءاً وفاقًا.

ثم لابد أن يزول الظلم ويعتدل الميزان وتُرد الحقوق إلى أهلها، فيتم العدل في الجزاء، قال النَّبي ﷺ: «**لتردن**

الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتَّى ليقاد من الشاة القرناء للشاة الجلحاء»رواه مسلم، وقال تعالى: ﴿ **الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ** ﴾[غافر: ١٧]، وقال سبحانه: ﴿ **فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا** ﴾[يس: ٥٤] فيومئذ يفرح المظلوم أنه كان مظلومًا ولم يكن ظالمًا.

وكلماته الشرعية أيضًا تمت صدقًا في الإخبار عن الماضي وعن المستقبل وعدلاً في الأوامر والنواهي، فلا عدل إلاَّ فيها وما خالفها من آراء الرجال وتشريعاتهم هي الظلم الذي تشقى به ملايين البشر مدة مقدرة من الزمن وتهلك به أجيال ثم يضمحل ويبحث الناس عن غيره، فإما أن يرجعوا إلى شرع ربهم الحكم العدل وإما أن يشقوا بمخالفتهم مدَّة أخرى وهلاكًا آخر والعياذ بالله، ولذا كان الذين يصدون الناس عن شرع الله هم أعداء البشر وجنود إبليس الدعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها، ولذا كان أهل الإيمان خير الناس للناس وأرحمهم وأنصحهم لخلق الله رغم ما يلقونه من أذى وما يُعانون من

اضطهاد وظلم.

«**ولقاؤك حق**» كم نحتاج إلى برد الرجاء للقاء الله في وسط حر هذه الدنيا ونصبها وتعبها ﴿**مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٥)**﴾ [العنكبوت: ٥]، ﴿**قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ(٢٤٩)**﴾ [البقرة: ٢٤٩] إن الصراع مع الباطل في الخارج وقرين لعين ونفس أمارة في الداخل، وشهوات ورغبات وإرادات لابد من التحكم فيها وأمراض أرضية وإبليسية لابد من التخلص منها، ليس بالشيء الهين، كيف لا يكون كذلك، والناجي منه واحد من ألف، والهالكون تسعمائة وتسعة وتسعون، الله المستعان.

لا يهون هذا الصراع الداخلي والخارجي إلاَّ باليقين بلقاء الله، لحظة اللقاء التي يفرح فيها الحزين ويطمئن فيها الخائف المفزوع، ويسكن فيها المضطرب، ويأنس فيها المستوحش من الدنيا وأهلها، طالما كان لقاء المحب المشتاق

كما دعا النبي ﷺ: «**وأسألك لذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك**» فاللهم نسألك لذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة.

وما أجمل ما قاله ابن القيم - رحمه الله -:

فحيهلا إن كنت ذا همة فقد ... حدا بك حادي الشوق فاطوِ المراحلا[١]

وقل لمنادي حبهم ورضاهم[٢] ... إذا ما دعا «لبيك» ألفا كواملا

ولا تنظر الأطلال[٣] من دونهم ... فإن نظرت إلى الأطلال عُدْنَ حوائلا

ولا تنتظر بالسير رفقة قاعد[٤] ... ودعه فإن الشوق يكفيك حاملا

---

(١) **أي**: اطوِ مراحل السفر إلى الله عز وجل، واقطعها، والسفر إلى الله هو بالقلب وبالتوحيد والإيمان.

(٢) منادي حب الله ورضاه هو رسول الله ﷺ، فقل له لبيك ألف مرة كاملات.

(٣) **الأطلال**: المنازل المهجورة، وهي الدنيا؛ لأنها لابد مهجورة، فإنك إذا أكثرت النظر إليها من نساء وبنين وقناطير مقنطرة... صارت حوائل تحول بينك وبين الوصول.

(٤) لا تعلق سفر نفسك إلى الله على من حولك، هل يلتزمون بالسير معك أم يقعدون، لا تنتظر رفقة قاعدين عن السير، بل يكفيك الشوق إلى الله يحملك في سيرك أسرع حمل.

وخذ منهم[١] زاداً إليهم وسر على ... طريق الهدى والفقر تصبح واصلاً

وأحيي بذكراهم[٢] سراك إذا ونت ... ركابك فالذكرى تعيدك عاملا

وإما تخافن الكلال[٣] فقل لها ... أمامك ورد الوصل فابغ المناهلا

وخذ قبساً من نورهم ثم سر به ... فنورهم يهديك ليس المشاعلا[٤]

---

(١) خذ بالتوكل على الله والاستعانة به زاداً منه سبحانه للسير إليه، فهذا تحقيق ﴿إياك نعبد﴾ بالسير إليه، ﴿وإياك نستعين﴾ بأخذ الزاد منه إليه، هو الذي يوصلك إلى مرضاته، اللهم أعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك، وأنت تسير على طريق الهدى وهو الصراط المستقيم، والدين القويم، وبالافتقار إلى الله تصبح واصلاً إليه سبحانه.

(٢) أحيي بذكرالله سيرك بالليل وقد رقد الناس عن السير إلى الله، أي أنت سائر في فترة الظلام حين أكثر الناس في غفلة عن الالتزام بالطاعة، فربما يتوانى الإنسان وتتأخر نفسه التي يسير بها وقلبه، فذكر الله يحيي عليه هذا الليل المظلم ويرده نشيطاً عاملاً بالطاعة.

(٣) إذا خفت على النفس من التعب في الطريق، فقل لها يا نفس عن قريب سوف تردين على الماء الذي تسقين به ظمأك وهو حصول الصلة والقرب بينك وبين الله، فابتغي يا نفس المناهل العذاب الجميلة.

(٤) في ظلام هذه الضلالات والفتن التي فيها الناس اسأل الله نوراً يجعله في قلبك، ثم سر بهذا النور وهونور الوحي المنزل، فالنور الذي يقذفه الله في قلبك من الإيمان بالوحي هو الهداية الحقيقية في هذه الظلمات وليس يصلح في مثل هذا السفر مشاعل من عند نفسك التي هي العلوم والأعمال التي لم تكن موافقة لنور الوحي فمن نفسك لا تصل وبها لا تهدي ولكن بالله تهتدي وبنور وحيه تقتدي.

وحي على واد الأراك فقل به | عساك تراهم فيه إن كنت قائلاً [١]
وإلاَّ ففي نعمان[٢] عند معرف الأحبة | فاطلبهم إذا كنت سائلاً
وإلاَّ ففي جمع بليلته فإن تفت | فمتى؟ يا ويح من كان غافلاً [٣]
وحي على جنات عدن بقربهم | منازلك الأولى بها كنت نازلاً [٤]
ولكن سَبَاك الكاشحون لأجل ذا | وقفت على الأطلال تبكي المنازلا [٥]

---

(١) يذكر ابن القيِّم – رحمه الله – أماكن المشاعر التي عسى أن يجد العبد في التعبد فيها طريقه إلى الله وواد الأراك مكة والله أعلم، والقيلولة الراحة من عناء حر الظهيرة، ففي الحج والعمرة راحة من عناء السفر.

(٢) **ونعمان** : هي عرفة.

(٣) **وجمع** : هي مزدلفة، فإذا فاتك أن تجد قلبك وحب الله والشوق إليه أثناء هذه المناسك والعبادات، فمتى سوف تجده إذن؟ يا ويل من كان غافلاً، نسأل الله العمرة والحج إلى بيته العام وكل عام، وأجر ما فاتنا رغم شوقنا الذي يعلمه علاَّم الغيوب، وفي قوله «عساك تراهم» الرؤية هنا بمعنى العلم، أي تعرف ربك وليست على ظاهرها، فإن العباد لا يرون ربهم بأبصارهم حتَّى يموتوا، والرؤية بالقلب خصوصية لرسول الله ﷺ.

(٤) أي هيَّا إلى جنات عدن، جنات الإقامة بقرب الله سبحانه، فإنها وطننا الأول، كنَّا نازلين فيه في ظهر أبينا آدم.

(٥) قبل أن يسبينا الحاقدون الحاسدون «الكاشحون» إبليس وجنده، فمن أجل أنَّا أُسرنا في هذه الأرض وقف من وقف على أطلال الدنيا المهجورة ولابد يبكي على ما فاته منها وإلا فلو كان حراً غير أسير لما وقف على هذه الأطلال الخربة المهجورة ولا بكى على شيء فاته منها.

فدعها رسومًا دارسات فما بها مقيل،فجاوزها فليست منازلا[١]

رسوم عَفتْ يفني بها الخلق كم بها قتيل وكم فيها لذا الخلق قاتلا[٢]

وخذ يمنةً عنها على المنهج الذي عليه سرى وفد المحبة آهلا[٣]

وقل يا نفسي ساعدي بالصبر ساعة فعند اللقاء ذا الكَدْ يصبح زائلا[٤]

---

(١) دع الدنيا أشكالاً وهيئات خارجية « دارسات » أي مضمحلة قديمة متهالكة درس الثوب، أي أصبح باليًا قديمًا فما بالدنيا من راحة من حر السير، فجاوز الدنيا فلا تصلح منزلاً تأوي إليه.

(٢) الدنيا رسوم زائلة خراب يهلك فيها من سكن إليها من الخلق وهي تقتلهم وفيها قتلة كثيرون من شياطين الإنس والجن يقتلون قلوب الخلق ويُميتون الإيمان فيها، فانظر حولك ترى كم من الناس الذين يمشون على الأرض وهم أموات غرقى في الشبهات والضلالات والشهوات، وكم في الدنيا من قتلة لهذا الخلق، نسأل الله الحياة والنور.

(٣) سر بعيدًا عن الدنيا ذات اليمين على طريق أهل اليمين ومنهج الحق الذي عليه سار قبلك أيضًا في الظُلْمة قبل أن يسطع النور وفد المحبين وهم النبيون والصديقون والشهداء والصالحون الذين أحبوا الله فساروا إليه وتركوا الدنيا وهوطريق آهل مملوءة بالسائرين لا تخف من الوحدة والانفراد حتى ولو لم تجد أحدا من أهل الأرض معك فيكفيك أنه آهل بالسائرين السابقين.

(٤) وقلْ لنفسك ساعديني بالصبر على طاعة الله وعن معصيته وعلى ما يصيبك ساعة هي الدنيا ومدتها ﴿ **وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ** ﴾ [يونس: ٤٥] فعند لقاء الله هذا التعب سوف يزول.

فما هي إلاّ ساعة ثم تنقضي ويصبح ذو الأحزان فرحان جازلا[1]

وقوله ﷺ: «**ولقاؤك حق**»، قال الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ** (٦)﴾ [الانشقاق: ٦]، أي ساع إلى الله إما بالخير وإما بالشر، وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبي ﷺ: «**فيلقى أحدكم ربه فيقول أي فُل** (أي يا فلان) **ألم أُسَوِّدْكَ؟ ألم أُزَوِّجْكَ؟ ألم أُسخِّر لك الخيل والإبل وأذرَكَ ترأس وتربع** (أي أتركك تترأس على قومك وتأخذ ربع الغنيمة كعادتهم في الجاهلية) **فيقول العبد: بلى. فيقول: أظننت أنك ملاقيّ؟ فيقول: لا. فيقول: اليوم أنساك كما نسيتني**» [الحديث رواه مسلم وغيره].

والآية والحديث يدلان على أن لقاء الله حق للمؤمن والكافر، فأما المؤمن كما سبق يشتاق إلى لقاء الله في الدنيا ثم عند الإحتضار يحب لقاء الله فيُحب الله لقاءه، فهي

---

(١) إذا انتهت ساعة الدنيا يصبح كل حزين فرحان سعيداً بما أعطاه الله عند لقائه، ولقاء الله إذا سلم من الموانع يستلزم رؤيته عز وجل فهي أعظم نعيم الجنة، نسأل الله الجنة والزيادة.

لحظة ينتظرها عمره وبرزخه، وأما الكافر والمنافق فيلقاه لقاء العبد الآبق لسيده الغاضب عليه – نعوذ بالله من سخطه وعقابه – وهو يكره لقاء الله ويكره الله لقاءه كما في الصحيح مرفوعًا «**من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه**»(١).

ثم بعد اللقاء المكروه يُحْجَب عن الله حجابًا أبديًا ويُنسى (أي يُترك) في العذاب نسيانًا سرمديًا غياثًا بالله من ذلك فما تُغني الدنيا بأسرها لو حصلت لهذا العبد الشقي التعيس في مقابلة هذا اللقاء المكروه وما بعده، وهي لا تحصل له ولا لغيره، بل لذاتها مشوبة بالآلام ونعيمها مصحوب بالشقاء المكتوب على كل من سكن الأرض وخرج من الجنة ﴿**فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ (١١٧)**﴾ [طه:١١٧]، وراحتها مقرونة بالتعب قبلها وبعدها، اللهم إنا نعوذ بك أن تغرنا الحياة الدنيا ونعوذ بك أن يغرنا بك الغرور.

---

(١) **حديث صحيح**، [متفق عليه] رواه الإمام أحمد والترمذي والنسائي.

وقوله ﷺ: «**والجنة حق والنار حق**» فيه إحياء لقلب الإنسان من موت الإعراض عن الآخرة، وإيقاظ له من نوم الغفلة عن المصير المحتوم إما جنة أبداً وإمَّا نار أبداً، روى أحمد والبخاري ومسلم عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار يُجاء بالموت كأنه كبش أبلج، فيوقف بين الجنة والنار، فيقال يا أهل الجنة هل تعرفون هذا: قال: فيشرئبون** (أي يتطلعون إليه) **وينظرون ويقولون: نعم، هذا الموت. فيقال: يا أهل النار، هل تعرفون هذا؟ قال: فيشرئبون وينظرون ويقولون: نعم هذا الموت، قال: فيؤمر به فيذبح، ويقال: يا أهل الجنة خلود لا موت، ويا أهل النار خلود لا موت**» ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿**وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٩)**﴾ [مريم: ٣٩] وأشار بيده ثم قال: «**أهل الدنيا في غفلة الدنيا**»

فإذا استحضر العبد أن الجنة حق وتذكر كيف يَنْعَم أهلها برضوان الله الذي لا سخط بعده أبداً، وبقربه الذي لا

بُعد بعده أبداً، وبالنظر إلى وجهه وسماع كلامه وسلامه، وكيف يتنعمون بالأمن التام والرفقة العظيمة رفقة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وسلام الملائكة وثنائهم، وكيف يتنعمون بطعامهم وشرابهم ولباسهم وفرشهم وأزواجهم هم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم، قال تعالى: ﴿ يطوف عليهم ولدان مخلدون (١٧) بأكواب وأباريق وكأس من معين (١٨) لا يصدعون عنها ولا ينزفون (١٩) وفاكهة مما يتخيرون (٢٠) ولحم طير مما يشتهون (٢١) وحور عين (٢٢) كأمثال اللؤلؤ المكنون (٢٣) جزاء بما كانوا يعملون (٢٤) لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما (٢٥) إلا قيلا سلاما سلاما (٢٦) وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين (٢٧) في سدر مخضود (٢٨) وطلح منضود (٢٩) وظل ممدود (٣٠) وماء مسكوب (٣١) وفاكهة كثيرة (٣٢) لا مقطوعة ولا ممنوعة (٣٣) وفرش مرفوعة (٣٤) إنا أنشأناهن إنشاء (٣٥) فجعلناهن أبكارا (٣٦) عربا أترابا (٣٧) لأصحاب اليمين (٣٨) ثلة من الأولين (٣٩) وثلة من الآخرين (٤٠) ﴾ [الواقعة: ١٧-٤٠]، وقال تعالى: ﴿ يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا

أَنتُمْ تَحْزَنُونَ (٦٨) الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ (٦٩) ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ (٧٠) يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٧١) وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢) لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ(٧٣) ﴾ [الزخرف : ٦٩- ٧٣] .

والقرآن مليء بوصف الجنة والترغيب فيها مما يُزَهِّد في نعيم الدنيا ولذاتها، ثم يتذكر العبد عذاب أهل النار في النار بالحجاب عن الله ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ (١٥) ﴾ [المطففين: ١٥] والطرد والإبعاد واللعنة ﴿ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (٤٤) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ(٤٥) ﴾ [الأعراف: ٤٤، ٤٥] وبالحسرة والندامة التي لا تنتهي بل تزيد، وبصحبة خبيثة في الأصفاد والأغلال مع الشياطين مقرنين يُعذبون بطعامهم وشرابهم ولباسهم ومهادهم وفرشهم وغطائهم حتَّى النَّفَس ﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ

ربُّكَ إنَّ ربَّكَ فعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [هود: ١٠٦، ١٠٧]، اللهم بيدك ملكوت كل شيء وأنت تُجير ولا يُجار عليك، فاكتب لنا ولوالدينا وأهلينا وذرياتنا وأحبابنا والمؤمنين والمؤمنات جواراً من النار.

وقوله ﷺ: «**والساعة حق**» يتذكر العبد به قيام الناس من قبورهم حفاة عراة غرلاً (أي غير مختونين) اجتمع الأولون والآخرون والسماء منشقة والأرض متزلزلة والجبال قد فُتت فتًا فكانت هباءً أي غباراً منبثًا، أي منتشراً والفزع والرعب الهائل يعم الخلائق إلاّ من رحم الله وخوف الأنبياء من غضب ربهم الذي لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله، جعل كلاً منهم يقول نفسي نفسي إلاّ محمداً ﷺ.

ويتذكر الميزان والصراط المضروب على جهنم أدق من الشعرة وأحد من السيف، ويتذكر تطاير الصحف والحساب والعطش والحوض المورود للنبي ﷺ، وردٌّ أناس من الأمة عنه، ويتذكر القصاص وردٌّ الحقوق إلى أهلها وفرار المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه، وودٌّ الكافر لو يفتدي من

عذاب يومئذ ببنيه وصاحبته وأخيه وفصيلته التي تُؤيه ومن في الأرض جميعًا ثم يُنجيه.

ويتذكر حر الشمس الدانية من الرؤوس قدر ميل، والعرق الشديد الذي يصل إلى الكعبين أو الركبتين أو الحقوين أو المنكبين أو يُلجم العبد إلجامًا أو يغطيه من فوق رأسه، ويتذكر طول القيام لرب العالمين في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، ويتذكر وقوف أصناف المؤمنين في ظل الله يوم لا ظلَّ إلاَّ ظله وأنه يهون الله عليهم يوم القيامة حتى كأنه نصف يوم ﴿**أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا (٢٤)**﴾ [الفرقان: ٢٤].

ويتذكر مجيء الرب لفصل القضاء ونزول ملائكة السماوات ومجيء الملائكة بجهنم لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها، ويتذكر حشر الكفار على وجوههم في هذا الكرب الهائل عُميًا وبكمًا وصمًا مأواهم جهنم كلما خبت زادهم الله سعيرًا، والله المستعان، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

وقوله ﷺ: «**والنبيون حق**» يتذكر المرء به صدقهم فيما أخبروا به عن الله وصدق رسالتهم ونبوتهم ويتذكر صفاتهم الجميلة ومواقفهم العظيمة في الدعوة إلى الله والجهاد في سبيله والتضحية والبذل والصبر والشكر ومقامات العبادات كلها وكيف أحبوا الله أعظم الحب وأحبهم سبحانه فيثمر ذلك في القلب، ولابد حبهم وتوقيرهم وخصوصًا أولي العزم منهم محمد ﷺ ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام، ثم يستحضر أن صفات كمالهم قد جمعها الله سبحانه في محمد ﷺ فجعله المثل الأعلى للإنسانية كلها وشرح له صدره ووضع عنه وزره ورفع له ذكره، وفتح له الفتح المبين وغفر له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخر وأتمَّ نعمته عليه وهداه صراطًا مستقيمًا ونصره نصرًا عزيزًا وجعله على خلق عظيم، فيقول عند ذلك: «**ومحمد ﷺ حق**» فرسالته إلى الثقلين الإنس والجن حق وطاعته المفترضة على جميع أهل الأرض وتصديقه ومتابعته حق لا يقبل الله من أحد صرفًا ولا عدلاً اذا سمع به إلاَّ بذلك، ولو كان موسى عليه السلام حيًا لاتبعه،

وحين ينزل عيسى عليه السلام يكون إمامًا عدلاً لأمته يكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ولا يقبل إلاَّ الإسلام.

أسأل الله أن يرزقنا مرافقته ومرافقة جميع النبيين في البرزخ وفي القيامة وفي الجنة نحن وجميع أهلينا وأحبابنا والمؤمنين والمؤمنات.

وقوله ﷺ: «اللهم لك أسلمت» يشمل معنيين أساسيين ينبغي للداعي أو المصلي أن يستحضرهما:

المعنى الأول: الإسلام لأمره الشرعي المذكور في قوله تعالى: ﴿**وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٦)**﴾ [غافر: ٦٦]، وقوله تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿**إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١)**﴾ [البقرة: ١٣١]، وقوله تعالى عن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام: ﴿**فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣)**﴾ [الصافات: ١٠٣]، فهذا معنى الانقياد والطاعة المطلقة الكاملة فلا يرى العبد لنفسه في نفسه وماله ولا أهله حقًا ولا أمرًا إلاَّ ما أذن الله له فيه ﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً**

مُبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾[الأحزاب: ٣٦] فلا يعارض شرع الله بشبهة عقلية أو شهوة دنيوية أو ذوق وجداني أو رأي قياسيّ أو توهم مصلحة في سياسة الناس، فيستسلم لأمر الله بالرضا والسماح دون منازعة ولا حرج ﴿**فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**﴾[النساء: ٦٥] وهذا هو دين الإسلام الذي جاءت به الرسل جميعًا وجعل الله هذه الكلمة «الإسلام» عَلَمًا عليه ورضيه لعباده ولم يرض لهم سواه ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ**﴾[آل عمران: ١٩]، ﴿**وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴿٨٥﴾ ﴾[آل عمران: ١٨٥]، ولا يثبت أصل هذا الدين إلاَّ بالإذعان والتسليم لله رب العالمين.

والمعنى الثاني: هو الاستسلام للحكم الكوني القدري الذي لا قدرة للعبد فيه ولا إرادة، ولا قدرة له على أخذ شيء من أسباب دفع السوء الذي قد يُقدَّر فيه أو جلب النفع الذي قد يقدر فواته كذلك وهذا كمرض لا

شفاء منه، وموت حبيب، وغياب قريب، وإذا كان له قدرة على أخذ شيء من الأسباب أخذ منها ما حل وترك ما حرم، مع كونه معتمداً بقلبه على ربه مفوضاً أمره إليه مستيقناً بأن الأسباب لا تنفع ولا تضر إلاَّ ما شاء الله، فهذا لا يُنافي التسليم لأمر الله، بل هو ضمنه وجزء حقيقته، وهذا مثل الحكم الكوني بالجوع فيُدفع بقدر الله بالأكل مستحضراً أن الله الذي رزقه إياه ويدفع قدر الله بالعطش بقدر الله بالشرب، ويدفع قدر الله بالمرض بقدر الله بالتداوي، وكل ذلك فيما يحل، ويفر من قدر الله إلى قدر الله، ويدفع القدر بالقدر.

والمشكلة الحقيقية لدى أكثر الناس في هذا النوع هو حال القلب وتعلقه بالأسباب فوجود الأسباب غالباً ما يدفع الإنسان للوثوق بها فيطمئن عند وجودها ويضطرب عند فقدها فهذا ينافي كمال التسليم الذي يدل عليه قوله ﷺ: «**اللهم لك أسلمت**».

وأما النوع الأول أعني الذي لا قدرة للعبد فيه ولا

أسباب؛ فمشكلة أكثر الناس عنده الجزع والضيق والسخط ثم التشكي لغير الله من قدر الله وإن لم يسمِّ المشكو منه صراحة، ثم استعمال الجوارح في التعبير عن هذا السخط وتلك الشكوى كضرب الخدود وشق الجيوب والتلهي بالمعاصي؛ لينسى ضيقه بالمصيبة أو حزنه على فوات المرغوب والمسلَّم قد انتهى من ذلك كله واستحضر أنه مملوك لربه وسيده وأن نفسه وماله وأهله قد سلمها له يفعل بها ما يريد وما أعظم فقه أم سليم وهي تقول لأبي طلحة عن ابنها الذي مات «أرأيت لو أن قومًا أعاروا عاريتهم أهل بيت ألهم أن يمنعوهم ؟ قال: لا. قالت: فاحتسب ابنك»[1].

بقي نوع ثالث من الحكم الكوني القدري وهو الذي للعبد فيه قدرة وإرادة وهو متعلق بأفعال العباد الاختيارية من الطاعة والمعصية، فتأكد الأخذ بالأسباب التي هي هنا العمل بالطاعة والتوبة من المعصية مع استحضار أن ذلك بتوفيق الله وإعانته وهدايته أعظم من تأكد أخذ الأسباب في الطعام والشراب والدواء ولا تنقسم الأسباب هنا إلى

(١) حديث صحيح، رواه مسلم.

مشروعة وغير مشروعة، بل في الجملة الأخذ بها أصل دين الإسلام وحقيقة ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ وترك الأخذ بأسباب الطاعة والتوبة من المعصية بزعم الاستسلام لله زندقة ونفاق وطعن في الشرع والرسالة والنبوات، بل والتوحيد والمعرفة بالله عز وجل في حقيقة الأمر، وعدم التوكل على الله فيها أو شهود أنها من العبد وبه، طعن في القدر وصفات الرب من العلم والقدرة والإرادة، فهو طعن في التوحيد كذلك، وهدم لنظامه والعياذ بالله .

والحقيقة أن المذاهب المنحرفة في هذا الباب هي شبهات عقلية سخيفة لا يُمكن أن تخرج من قلب حي مستنير، وإنما ذكرتها هنا حتَّى لا ينزلق العقل إليها، وإلاَّ فالإيمان يلفظ هذه الأفكار والوساوس وإنما على العبد أن يركز حين يقول «**اللهم لك أسلمت**» على معنى الاستسلام للأوامر الشرعية والاستسلام للأحكام الكونية التي لا قدرة له عليها، فحال القلوب في هذه المسألة هو المحك والمنزلق وموضع الزيادة والنقص، والله المستعان .

فائدة : تقديم الجار والمجرور على الفعل والفاعل يفيد الاختصاص والاهتمام.

قوله ﷺ : «**وبك آمنت**» فيه استحضار حقيقة الإيمان التي أصلها التصديق والتعظيم والحب والانقياد وباقي أعمال القلوب والإيمان هنا هو الحقيقة الباطنة بدليل اقترانه بالإسلام وهما معًا جناحا الدين .

«**وعليك توكلت وإليك أنبت**» ما أحوج العبد إلى استحضاره الدائم لهاتين القضيتين، فالجملة الأولى «**عليك توكلت**» هي حقيقة ﴿ **وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ والثانية «**إليك أنبت**» حقيقة ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ** ﴾ ، فالأولى منبعها من الافتقار التام إلى الله سبحانه وشعور العبد بالعجز والضعف والانكسار والحاجة، بل الضرورة التامة إلى ربه في كل شأنه وخاصة في عبادته والإنابة إليه وهي الرجوع إلى عبادته وترك عبادة غيره والرجوع عن رجاء غيره إلى رجائه وعن الخوف من غيره إلى الخوف منه وحده، وعن معصيته ومخالفته إلى طاعته، وهي تنبع من رؤية التقصير الدائم

والمستمر والتقلب الذي لولا الله لهلك العبد، فوالله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا، فأنزلن سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا إن الألى قد بغوا علينا، وإن أرادوا فتنة أبينا.

وعند تأمل هذا الدعاء العظيم الذي هو بين يدي الفاتحة الكنز الأعظم والسبع المثاني والقرآن العظيم، المتضمنة لنفس القضيتين، نجد أنه قد تضمنَّ هاتين القضيتين عدَّة مرات ولكن بعبارات مختلفة وتوجهات متعددة، فـ«**بك خاصمت**» فيها معنى التوكل والاستعانة، و«**إليك حاكمت**» فيها معنى الاستسلام للشرع وهو العبادة، «**وأنت إلهي لا إله إلا أنت**» فيه معنى العبادة والتأله له سبحانه وحده لا شريك له، و«**لا حول ولا قوَّة إلاَّ بك**» فيها معني الافتقار والاستعانة والتوكل والاقتران بين هاتين المسألتين كثير في القرآن والسنة؛ لأهميتهما العظيمة فأولها الفاتحة كما ذكرنا، ثم في قوله تعالى عن شعيب عليه السلام: ﴿**إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ**﴾ [هود: ٨٨].

فالإصلاح هو العبادة والإقرار بأن التوفيق لا يكون إلا بالله هو الاستعانة وقوله ﴿ عليه توكلت وإليه أنيب (٨٨) ﴾ [هود: ٨٨] فيه نفس المسألتين أيضاً التوكل والإنابة، وقوله تعالى في سورة الرعد: ﴿ قل هو ربي لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب (٣٠) ﴾ [الرعد: ٣٠] ، وقوله تعالى: ﴿ فاعبده وتوكل عليه ﴾ [هود: ١٢٣]، وقوله تعالى: ﴿ رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا (٩) ﴾ [المزمل: ٩]، وفي آيات أخر من القرآن ومواضع من السنة؛ وذلك التكرار يؤكد أهمية هاتين المسألتين للعبد وحاجته إلى تجديدهما في القلب كل حين؛ لأنه يشرد بعيداً عنهما في زحمة الحياة، والتعلق بأسبابها وتفرق غاياتها ومراداته منها، فكلما كرر هذه الكلمات المنيرة حيي بها قلبه وتجددت عزائمه في سيره إلى الله وتذكر حقيقة هدفه في الحياة ووسيلته لتحقيق هذا الهدف، فاللهم عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير، ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم.

قوله ﷺ: «**وبك خاصمت وإليك حاكمت**» الدنيا

مليئة بالصراعات والخصومات، فأكثر الخلق يُخاصمون لأجل حظوظ أنفسهم وشهواتهم وإرادة العلو في الأرض والفساد، وهم في خصومتهم يعتمدون على قوتهم وجنودهم وأعوانهم وسلاحهم وعتادهم، وهم في خصوماتهم يحاكمون خصومهم إلى الأهواء والآراء والسياسات والعقول، وشرعة الجاهلية وأحكامها، وكثيراً ما يحاكمون إلى ما يريده صاحب القوة والسلطان، فما يريده هو الحق عندهم وما لا يريده هو الباطل مهما كانت الأدلة والبيّنات على غير ذلك، وما يقوله هو الصدق حتَّى لو كان أكذب الكذب، وما لا يريد أن يسمعه هو الكذب والزور حتَّى لو كان أصدق الصدق.

فهذه حال أهل الدنيا وما أكثرهم، والمؤمن بعيد عن هذه الزبالات والنجاسات يعلو عليها ويرتفع إلى القمم العالية بل إلى آفاق السماوات، فهو إذا خاصم خاصم لله عز وجل ولحقّه ولدينه ولشرعه وهو في خصومته يستحضر ضعفه وعجزه، وقلة عدده وعدته وما بيده لا يثق فيه ولا يعتمد عليه، بل هو يخاصم بالله وحده لا شريك له، ولا

يتوكل على أعوانه ولا شفعائه ولا يخاصم بكثرة جنود وعدد وعُدَد، بل كلما كان أضعف في شعوره بنفسه كان أقوى بشدة لجوئه إلى ربه، وكان أقوى بربه وبحوله وقوته .

قال النَّبي ﷺ : «**هل تنصرون إلاَّ بضعفائكم**»(١) وقال تعالى : ﴿ **ولَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ** ﴾ [آل عمران :١٢٣]، وقال سبحانه: ﴿ **وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٢٦)** ﴾ [الأنفال: ٢٦].

فاللهم إنَّا قليل مستضعفون في الأرض قد تخطفنا الناس فآوِنا وأيدنا بنصرك وارزقنا من الطيبات واجعلنا من الشاكرين، وإن المؤمن في شدة المحن التي هي منح، وكلما ظهرت أمارات غدر الأعداء ونقضهم العهود وخلف الوعود وعدم الوفاء بما يقولون للوسطاء والشفعاء، كلما وجد أثر هذه الكلمة «**وبك خاصمت**» وهو يقولها بتوكل أتم مما لو

---

(١) **صحيح** ، رواه أبو نعيم في الحلية، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم(٧٠٣٤) وبزيادة «**وترزقون**» رواها البخاري .

تعلقت نفسه بالكلمات الكاذبة والوعود الوهمية، وكلما تذكرنا مستقبل الدعوة وحال المسلمين في كل مكان من الضعف والهزيمة وتسلط الأعداء ولا ندري أين المخرج كلما كان أثر هذه الكلمة في إزالة الهموم والغموم أعظم ولله الحمد والمنة.

والمؤمن في تحاكمه باذل جهده مستفرغ وسعه في أن يحاكم نفسه وخصمه ومخالفيه في كل شيء في مسائل الاعتقاد والإيمان وفي مسائل الأعمال والمعاملات وفي مسائل القلوب وأحوالها ومنازلها وفي مسائل السلوك والأخلاق وفي المواقف من الأحداث التي تقع حوله إلى شرع الله وكتابه وسنة نبيه ﷺ وإجماع أهل السنة وما يتفرع على هذه الثلاثة من قياس صحيح أو مصلحة معتبرة أو غير ذلك من مصادر الأدلة التي يُعرف بها حكم الله الحكم العدل الذي أخبر به على ألسنة رسله ﴿**إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ**﴾ [يوسف: ٤٠].

وإنه لمن الشرف للمرء - عند الله وعند الذين آمنوا - أن تكون تهمته وعقوبته على أنه يُحاكِم إلى الله دون حكم

الجاهلية وإنه لينبغي أن يستصغر ما يصيبه من البلاء مع عظم هذه النعمة، وإن كان المرء ضعيفًا عاجزًا قليل الصبر فاللهم لا تحملنا ما لا طاقة لنا به وارزقنا العافية في الدين والدنيا والآخرة، هذا ولم يزل أهل العلم يصيبهم البلاء والمحنة بسبب هذه المسألة وإن قيامهم بها لهو من شكر الله على نعمة العلم وإذا رأى المرء غيره – ممن هو أقل منه رزقًا في العلم والفهم – يتحمل أضعاف ما يتحمله من البلاء فلابد أن يلوم نفسه على تقصيرها وجزعها واستعجالها، فاللهم غفرانك وعفوك ومعافاتك ورحمتك، أنت فارج الهم وكاشف الغم مجيب دعوة المضطرين رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما أنت ترحمنا فارحمنا رحمة تغننا بها عن رحمة من سواك.

قوله ﷺ: «**أنت ربنا وإليك المصير**» الإيمان بالله واليوم الآخر قرينان لا ينفصلان وقد تكرر الجمع بينهما في الكتاب والسنة كثيرًا، قال تعالى: ﴿**وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ**﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقال النَّبي ﷺ: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو**

ليصمت» وفي أحاديث كثيرة «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر**»(١).

ومعاني الربوبية كلها مرتبطة بالإيمان باليوم الآخر ارتباطاً وثيقاً فمعنى الخلق والرزق والتدبير فيه بدء الخلق وإعادته، ﴿**وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ**﴾ [الروم: ٢٧] والإيمان بالإعادة هو الإيمان باليوم الآخر، ومعنى الملك يظهر جلياً بلا منازعة في اليوم الآخر ﴿**لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦)**﴾ [غافر: ١٦]، ﴿**الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ**﴾ [الحج: ٥٦]، ﴿**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾ [الفاتحة: ٤]، ومعنى السيادة والأمر والنهي والتشريع ارتباطه باليوم الآخر الذي هو يوم الحساب على امتثال الأوامر والنواهي واتباع الشرع ارتباط ظاهر.

واستحضار أن المصير إلى الله سبحانه بعد «**وبك خاصمت وإليك حاكمت**» عظيم الأهمية في تحصيل الصبر على الخصومة في الله عز وجل ومن أجله ونصرة لدينه ومخالفة الخلق مع الحاجة إليهم في الدنيا إيثاراً

(١) رواه مسلم.

لتحكيم شرع الله وأمره ودينه مما يترتب عليه عداوتهم وبذلهم الجهد في أذية المخالف لهم، فيهون على المرء ما يصنعونه ويمكرونه من العداوة أن المصير إلى الله، فلابد لكل مخلوق من نهاية من لذة أو ألم أو ولاية أو عداوة ولا يبقى إلاَّ ما ابتغى به وجهه سبحانه وتعالى فيهون على العبد ما يفوته بسبب الخصومة في الله من نعيم الدنيا ويهون عليه الأذى الذي يصيبه ويحتسبه عند الله فيصبر ثم يرضى .

نسأل الله أن يرزقنا الرضا بعد القضاء ، وهذا المعنى مذكور في قوله تعالى عن المؤمنين مع إبراهيم عليه السلام بعد إعلانهم عداوة قومهم ﴿ **قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٥﴾** ﴾

[الممتحنة: ٤، ٥]

فلا نترك المخاصمة لله وبالله ولا نحاكم إلى غيره ونبرأ من كل تحاكم إلى غيره، ونرجو الأجر يوم المصير إلى الله، ونخاف إن خالفنا شرعه ووافقنا أعداءه من يوم المصير إلى الله، فهو يتضمن معنى الخوف والرجاء، ويوجب الصبر والثبات، والله المستعان.

قوله ﷺ: «**فاغفر لي ما قدَّمت وما أخَّرت وما أسررت وما أعلنت، وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم وأنت المؤخر، أنت إلهي لا إله إلاَّ أنت ولا حول ولا قوَّة إلاَّ بك**» العبد بهذه الكلمات يستشعر أنه غريق قد أُحيط به من كل جانب إلاَّ أن ينقذه ربه وإلهه ومولاه، فذنوبه قد أحاطت به من كل جانب قد تقدم منها كثير، وقد تأخر كثير، وقد أسر كثيراً وقد أعلن كثيراً فضلاً عن ما لا يعلمه من ذنوبه، وقد أحاط بها ربه علمًا فمن يُنجيه إلاَّ الله؟! وإذا تذكَّر العبد أن قائل هذه الكلمات هو محمد ﷺ خير الخليقة وسيد الأولين والآخرين وصاحب المقام المحمود والشفاعة المقبولة المعصوم ﷺ، فكيف بك يا نفس؟! وكيف إحاطة الذنوب بها؟ وأين علمك من علم النَّبي ﷺ

الذي يعلم من نفسه ما يستحق الاستغفار في اليوم مئة مرة، فكيف وأنت لا تدري من نفسك وعيوبها وأمراضها وأسرارها ما لا يعلمه إلاَّ الله الذي يعلم السر وأخفى، فإن للنفس أغواراً بعيدة هو سبحانه أعلم بما فيها والتي لو حاسب عليها العبد لهلك ولولا لطفه ورحمته عز وجل لظهر من بعضها ما ظهر من إبليس، ولقادته السيئة الباطنة إلى سيئة بعدها إلى أن ينتهي إلى الهلاك والعياذ بالله.

ووالله لا ينجي من ذلك إلاَّ الله، ولا يغفره إلاَّ الله، فاللهم أغثنا اللهم أغثنا اللهم أغثنا، والتوسل إلى الله في هذا المقام بأسمائه الحسنى المقدِّم والمؤخر يتضمن طلبًا وسؤالاً أن يقدمه الله في طاعته واستعاذه أن يؤخره في معصيته مع الخالفين، ثم التوسل إلى الله بألوهيته المضافة إلى ضمير المتكلم المفرد «**أنت إلهي**» فيه من معنى الخصوصية في التوجه والإخلاص ما يشعر العبد به أنه مع ربه وحده ولربه وحده وسوف يلقاه وحده، ﴿**وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا**﴾ [مريم: ٩٥]، فلا أهل ولا ولد ولا مال ولا إخوان ولا أخوات ولا شيء إلاَّ ما كان بينه وبينه.

ثم يقرر العبد حقيقة التوحيد وانفراد الله سبحانه بالألوهية واستحقاق العبادة من العبد نفسه ومن غيره «**لا إله إلاَّ أنت**» فلا يستحق أحد أن يُعبد سواك يا رب لا إله لي سواك ولا إله لغيري من العبيد سواك، الكل يحق له أن يحبه وأن يخضع له ويذل له ويخافه ويرجوه ويتوكل عليه وحده لا شريك له، أنا أفعل ذلك يا رب، فأنت إلهي، والخلق كلهم عليهم أن يفعلوا ذلك، ولن يتم ذلك لأحد إلاَّ بحولك وقوتك.

«**ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله**» هذه الكلمة التي هي كنز من كنوز الجنة كما قال رسول الله ﷺ، فهنا تظهر حقيقة الفقر التام والعجز التام، وصف حقيقيّ للعبد نفسه وللعباد جميعًا، فلا حول لنا ولا لأحد إلاَّ به ولا يتحول أحد عن حال إلى غيره إلاَّ بالله سبحانه ولا قوة ولا قدرة إلاَّ بالله سبحانه وهذا مع الذي قبله «**لا إله إلاَّ أنت ولا حول ولا قوة إلاَّ بك**» يتضمن حقيقة الإيمان بالشرع والعمل به، والإيمان بالقدر واليقين والتفويض والتوكل على الله سبحانه، ففيه إثبات القوة والقدرة للعبد بالله لا بنفسه وأن

عمله في توحيد الله وعبادته لا يكون إلاَّ بتوفيقه وإعانته فيمنع العجب والغرور والكبر وسلسلة الأمراض الإبليسية.

ووالله إن القلب ليتقلب في اليوم المرات بل العشرات، وربما المئات ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله، وإذا كانت الأعمال القلبية التي قد تستغرق لحظة أو أقل لها أثر في المنازل عند الله، فقد أخبر النَّبي ﷺ عن شهداء مؤتة زيد وجعفر وعبد الله ابن رواحة أنه رأى في المنام أنهم على أسرة عند ربهم، ورأى في سرير عبد الله ازوراراً عن سرير صاحبيه؛ لأنهما عند الموت ما ترددا وتردد هو بعض التردد، ثم أقدم؛ فيا سبحان الله هؤلاء الأفذاذ الشهداء بشهادة رسول الله ﷺ مجرد لحظة فرقت بين منزلة ومنزلة، وكذلك في أهل بدر خيرة أهل الأرض وأفضل الصحابة الذين ما تخلفوا ولا توقفوا، بل قالوا لرسول الله ﷺ: «اذهب أنت وربك فقاتلا إنَّا معكما مقاتلون» قال سبحانه وتعالى عنهم: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ۝٥ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى

الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٥] مجرد كراهية لم تؤثر فعلاً ، ولا معصية، ومجرد مودة نصر سهلٍ على نصر صعب، عوتبوا عليه أو عوتب من وقع منه ذلك، وكان نقصًا بالنسبة إلى من لم يقع منه، فكيف حالنا وحال قلوبنا وهي ترد عليها ما يستحي العبد منه، ويخشى أن يحرم رفقة الصالحين بسببه.

ولكن لا حول ولا قوّة إلاّ بالله، ولا ملجأ إلاّ الله الرحمن الرحيم، والله إن لم يغفر لنا ربنا ويرحمنا لنكونن من الخاسرين، وإنما ذكرت ذلك حتّى لا تغرنا نفوسنا عن نفوسنا ونظن لها الأحوال والمقامات العالية وهي بعد في سفح الجبل، فاللهم ارفعنا بآياتك، والطف بنا بعفوك ومغفرتك، وتجاوز عمَّا تعلم وخذ بنواصينا إليك، وثبّت قلوبنا على دينك، وارؤف بنا وارحمنا إنك أنت الرءوف الرحيم، لا إله إلاّ أنت ولا حول ولا قوّة إلاّ بك.